



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
الجمعية الجغرافية السعودية



إصدارات في الثقافة الجغرافية (٣)

الجغرافيا والهوية الوطنية



إعداد

أ.د. محمد شوقي بن إبراهيم مكي

قسم الجغرافيا-كلية الآداب-جامعة الملك سعود

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

الجغرافيا والهوية الوطنية

أ.د. محمد شوقي بن إبراهيم مكي^(*)

تقديم:

ترددت الأقاويل حديثاً في الصحف والمجالس حول الجغرافيا وأهميتها في عصرنا الحاضر. وما يلفت النظر اتجاه بعض هذه الأقاويل إلى التشكيك في أهمية الجغرافيا في عصر العولمة. ومن أمثلة هذه الآراء:

أنه من تتبع بيانات خريجي أقسام الجغرافيا وبيانات توظيف الخريجين في المملكة التي توضح تناقص فرص التوظيف، فهناك حاجة إلى قفل أقسام الجغرافيا أو على الأقل الحد من قبول الطلاب فيها لأن السوق مشبعة ولا تتحمل مزيداً من الخريجين. ومن الأمثلة على هذه الدعوات ما ذكره الزهراني عن قصور مكانة الجغرافي في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عن مثيلاتها في الدول المتقدمة (الزهراني، عبد الله بن سالم، ١٤٢١هـ). وهناك إشارة الغامدي حول تطوير بعض الأقسام لخطتها والتعدي على تخصص الجغرافيا دون استشارة أصحاب الخبرة والاختصاص في مجالات مثل البيئة والنقل مما يبدو تهميشاً متعمداً لاستبعاد علم له مكانته، أو على الأقل عدم بناء جسور تربط بين التخصصات في مؤسسة تعليمية واحدة مع أن العلوم في وقتنا الحاضر تتقاطع مع بعضها البعض (الغامدي، علي بن معاضة، ١٤٢٥هـ، ص ٨). وذكر الرشود عقدة الدول النامية التي لا تقدر الجغرافيا وتوجه أولياء الأمور في بداية كل عام دراسي إلى حث أبنائهم من خريجي المدارس الثانوية للالتحاق بمختلف التخصصات إلا الجغرافيا (الرشود، عبدالحسن، ١٤٢٥هـ، ص ٧). وهناك مقالة العنقري الذي طالب بما أسماه ترشيد الأقسام الأكاديمية مقترحاً قفل بعض الأقسام في الجامعات مثل الجغرافيا والتاريخ (العنقري، سلطان، ١٤٢٥هـ). وطالب الغوينم بتحويل دروس الجغرافيا في التعليم العام إلى دروس التربية البدنية لأن ذلك في رأيه أكثر فائدة للتلاميذ (الغوينم، محمد، ١٤٢٨هـ).

ولهذا برز هدف هذه النشرة لإيضاح المفهوم المعاصر للجغرافيا وأهمية هذا المفهوم لحياة الفرد والمجتمع والأمم.

نسال الله العلي القدير أن نعم الفائدة وتزول الغمة عن المتسرعين في اتهام الجغرافيا بعدم النفع والفائدة.

^(*) قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك سعود.

إضاءات على تطور مفهوم الجغرافيا:

تتميز الكثير من العلوم بتغيرات في المفهوم والنظريات والأدوات. بعض هذه التغيرات قد تكون محدودة وبعضها الآخر قد تشكل قفزات نوعية واسعة. والجغرافيا من العلوم التي كانت ولا تزال في حالة تغير مستمرة في مفاهيمها. إذ مرت بمراحل تطورية متعددة يمكن إجمالها باختصار في الآتي:

١- **مرحلة وصف الأرض** التي سادت منذ القرون الأولى قبل الميلاد وطوال فترات القرون الوسطى. وكانت عبارة عن ممارسة للوصف اللفظي للمناطق المعمورة على سطح الأرض (أبو العلاء، ١٩٩٨م، ص ٧-١٢).

٢- **مرحلة الدراسات المقارنة** التي ارتبطت بحركة المستكشفين شرقاً وغرباً، مما أدى إلى تراكم المعرفة الجغرافية وتشابه المعلومات. وبالتالي إلى التطور من الوصف فقط إلى التفسير والمقارنة بين الظواهر وعللها.

٣- **مرحلة الدراسات المحلية والميدانية.**

٤- **مرحلة انتشار مفاهيم الحتمية البيئية والإمكانية.**

٥- **مرحلة بروز الاهتمام بالجغرافيا الإقليمية** وهي أحد المراحل المهمة في تطور الجغرافيا والتي بدأ فيها الجغرافيون بالنظر إلى المكان كوحدة واحدة كلية لا تتجزأ. وبذلك تحطى الفكر الجغرافي حدود الوصف والتفسير إلى التحليل الدقيق للعلاقات التأثيرية المتبادلة بين الظواهر الطبيعية والبشرية في المكان للخروج بقواعد عامة ونظريات علمية محددة. ومن هنا تزايد الاهتمام بدراسة الشخصية المميزة للإقليم.

٦- **مرحلة الاهتمام بمفهوم اللاندسكيب الإيكولوجي والمورفولوجي.**

٧- **مرحلة الاهتمام بالجغرافيا السلوكية** وهي أحد المراحل المهمة التي أرسى أسس الجغرافيا المعاصرة. وظهرت في النصف الأول من القرن العشرين نتيجة للاهتمام المتزايد من قبل الجغرافيين باستخدام الأساليب الكمية والنماذج الرياضية في تقييم الحجم والأثر الكمي للظواهر الطبيعية والبشرية في الدراسات الجغرافية. مما أطلق عليه في حينه ب"الثورة الكمية في الجغرافيا" للخروج بالجغرافيا من ميدان التنظير فقط إلى الميدان الوظيفي ودعم الابتكارات المستقبلية التي تخدم الفرد والمجتمع (أبو عيانة، فتحي، وآخرون، ١٩٩٩م، ص ٣٦٩؛ جنسين، أريد هولت، ٢٠٠٧م، ص ١٢-١٠٢).

٨- وأخيراً ظهرت مرحلة الجغرافيا التقنية التي تستخدم التقنيات الحديثة مثل نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد في بلوغ أهدافها. وقد ازدهر هذا التوجه منذ النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة تراكم المعرفة في ميادين متعددة وتطور التقنيات التي دعت الجغرافيين إلى تطبيق تلك المعارف والأساليب التقنية المتقدمة ودراسة المشكلات التي تهم الإنسان في مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وفهم أسبابها واقتراح الحلول الممكنة لها. لقد أصبح الجغرافيون يطبقون هذه التقنيات في العديد من فروع الجغرافيا مثل جغرافية العمران. والتخطيط الحضري. والجغرافيا المناخية. والجغرافيا الحيوية. والجغرافيا الطبية.

لقد أصبحت الجغرافيا بميدانها الفسيح في الدراسات الإقليمية واستخدام التقنيات علماً مفتوحاً على العديد من المعارف الطبيعية والاجتماعية والتقنية. مما مكن من الانتقال من المرحلة الوصفية إلى المرحلة السببية التي ربطت الجغرافيا بالكثير من العلوم. ولهذا نجد الجغرافيا تدرس في بعض الدول في الكليات العلمية أو أن لها كيانات خاصة مستقلة بها. ولهذا وجدنا الجغرافيا الحديثة تتبنى العديد من النماذج والنظريات والمفاهيم التي تؤكد على تحليلات جغرافية متشابكة في المكان والإنسان.

وهذا ما دعى العديد من الباحثين إلى القول بأن الجغرافيا علم متميز يدرس قضايا تركز على المنطقة البينية interdisciplinary بين العلوم الطبيعية والاجتماعية. حيث يتفاعل فيها الجغرافي مع العلوم الأخرى للاستفادة والإفادة في استخدام الأدوات الجغرافية وغير الجغرافية التي تفيد في التحديد المعرفي الشامل للمكان. وتشمل هذه الأدوات الخريطة. ونظم المعلومات الجغرافية. والاستشعار عن بعد. والمعادلات الكمية. وأدوات القياس المختلفة.

المراحل التي ذكرت سابقاً تؤكد أن المجتمعات تسير في وقتنا الحاضر نحو عمليات ضخمة من التغيير. فنحن في فترة انتقالية حاسمة في التاريخ. هذه التغييرات أصبحت تؤثر في نمط حياتنا. وفي ممتلكاتنا. ومدننا. ومؤسساتنا التعليمية. ويؤمل أن يؤدي هذا التغيير إلى تبني عناصر جديدة بناءة في حياتنا وتفكيرنا. ولعل الحراك الدولي هو أحد مفاتيح عناصر الانتقال الاقتصادي والاجتماعي الحادث في هذه الأيام (عالم بلا حدود).

ولهذا فإن البحث مهم جداً لفهم التغيرات الحاصلة في علاقاتنا، وهي أساسية لمجابهة وفهم النتائج من قبل العلماء والباحثين من كل الأقاليم والقارات. ولهذا كان أيضاً من الضروري أن تتحرك جامعاتنا لتكون جزءاً من العالم وتشجيع التعليم والبحث المرتبط بالعالم. بمعنى توسعة دائرة اهتماماتنا وأن لا تكون قاصرة على الإطار المحلي. ففي ظل العولمة أصبحت أجزاء العالم يتأثر بعضها البعض الآخر طبيعياً وبشريا. والشبكات العنكبوتية ساعدت في ذلك، مما مكن من المشاركة في مجموعة الدراسات العالمية. ومن المهم تشجيع مشاركة الجغرافيين الشباب ودعمهم مالياً ومعنوياً لعقد مثل هذه الشراكات البحثية. والاهتمام بتطوير مناهجنا التعليمية، خاصة فيما يتصل بالتدريب الميداني أو التعاوني داخلياً وخارجياً.

وهناك العديد من المجموعات التخصصية في الاتحاد الجغرافي الدولي (٣٤مجموعة). وفي الجمعية الجغرافية السعودية (٥ مجموعات) والتي يمكن أن تفعل هذه الشراكات. ولعلي أضرب هنا بعض الأمثلة من الاتحاد الجغرافي الدولي الذي يهدف إلى تعزيز التعليم الجغرافي حول العالم. وإعطاء نظرة شمولية للظواهر الجغرافية. ومن هذه المجموعات:

- ١- مجموعة التغيرات الكونية والحراك البشري (Globility). ومن أحد أهداف هذه المجموعة: فحص الحراك البشري الذي يرتبط بالتغيرات الكونية.
- ٢- مجموعة تعليم الجغرافيا: لها سبعة أهداف من بينها: بحث طرق استخدام التقنية لتعزيز تعليم الجغرافيا وتطوير التعليم البيئي والتعليم من أجل التنمية.
- ٣- مجموعة الجغرافيا ومجتمع معلومات العولمة: وتهتم بالأبعاد المكانية للإنترنت، وطبيعة الحركات، وتقنية المعلومات وتأثيرها على العلاقات الاجتماعية والمجتمع وقضايا السياسات ذات العلاقة بمجتمع المعلومات. مع الاهتمام بدراسة مناطق بعيدة تبعد الجغرافي عن الانغلاق وضيق الأفق.
- ٤- مجموعة الجغرافيا والسياحة والترفيه والتغيرات الكونية: وهي تنظر للعالم بمنظار واسع وعاصمة واحدة للعالم.

لعل اهتمام هذه المجموعات يلقي الضوء على التوجهات الجديدة في الجغرافيا. كما أن هذه المجموعات التي يدعم الاتحاد الجغرافي أهدافها بقوة تدفع إلى تبني البحوث المشتركة. ولعلي أسوق هنا مثلاً من مجموعة: "تدهور الأرض والتصحر"

التي يرأسها أ.د. جودرون جيسلادوتير من المعهد الأيسلندي للجيولوجيا والجغرافيا، وهو متخصص في الجغرافيا الطبيعية. ويشاركه في اللجنة التنفيذية أعضاء متخصصين في البيئة. ونظم المعلومات الجغرافية. والجيوفيزيك. وتضم اللجنة أعضاء من دول شتى. هذا الذي يؤدي إلى ظهور بحوث شاملة ومتعمقة في دراسة الظواهر الجغرافية.

وبوصول الفكر الجغرافي المعاصر إلى تحديد الإطار التطبيقي الوظيفي النفعي أصبحت الجغرافيا علم لا غنى عنه لأي مجتمع يطمح إلى مواجهة مشكلاته بطرق علمية لتحقيق مستقبل زاهر لأفراده. كما أهل الجغرافيا لأن تحتل مكاناً مرموقاً بين العلوم والمعارف الأخرى.

ويتضح ذلك من التعريفات الحديثة للجغرافيا. فقد عرفها جيمس فيشر بأنها: "محاولة الفهم السليم والدراسة المتأنية للواقع الديناميكي المعقد المكون من ثلاثة عناصر وهي: توزيع الظواهر الطبيعية والبشرية. وتحديد نظم العلاقات المتبادلة بين التوزيعات المتباينة والمتشابهة. وتحديد الشخصية المميزة للإقليم (المكان) بخصائصه ومشكلاته.

ويقصد فيشر بالفهم السليم: التفسير والتحليل. ومحاولة التنبؤ المنطقي. والتقييم الموضوعي. وتحديد الأمثل للظواهر الجغرافية والعلاقات المكانية الناتجة عن التفاعل بين الإنسان والبيئة في الوقت الحاضر والمستقبل.

كما سبق يمكن أن نوجز خصائص الجغرافيا الحديثة في النقاط الآتية: ١- البيئية؛ ٢- الشمولية؛ ٣- التكاملية؛ ٤- الديناميكية؛ ٥- التركيبية؛ ٦- المستقبلية؛ ٧- الموضوعية؛ ٨- والتطبيقية.

ويتطلب نجاح تطبيق هذه الخصائص تطورات مشابهة في مناهج وأساليب البحث الجغرافي والتي تشمل:

أ- الاتجاه نحو استخدام المنهج الكمي والنماذج. وتوظيف نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد ونظم التوقيع العالمي GPS. مما يوفر إمكانات كبيرة للبحث في أماكن بعيدة قد لا يمكن الوصول إليها.

ب- الاهتمام بالمنهج الإقليمي والمنهج السلوكي في الدراسات الجغرافية.

ج- استخدام نظم الخبرة Expert Tech system كأحد أنظمة الذكاء الاصطناعي التي تقوم بتحليل مدلولات بيانات معينة للوصول إلى الحلول الممكنة لمشاكل معينة.

وقد بدأت بحوث بعض فروع الجغرافيا تهتم بهذه المناهج والأساليب في عام ٢٠١١م. كما في الجغرافيا العسكرية التي تضم ١٧٠٠٠٠ بحثاً (١٥.٥٪ منها في هذا الاتجاه). والجغرافية البيئية التي تضم حالياً نحو ٢٦٥٠٠٠٠ بحثاً (١٢.٦٪ منها في الاتجاه نفسه). وجغرافية الخدمات التي تضم نحو ٢٨٧٠٠٠٠ بحثاً (١٠.٧٪ منها في هذا الاتجاه). والجغرافيا السياحية التي تضم نحو ١٥٧٠٠٠٠ بحثاً (٥.١٪ منها في الاتجاه). وتجد في هذه الفروع تزايد الاهتمام بموضوعات مثل مناطق المخاطر الطبيعية (٢٠٦٠٠٠٠ بحثاً). والبطالة (١٦٨٠٠٠٠ بحثاً). وحوادث الطرق (٤٤١٠٠٠٠ بحثاً). والفقر (٢٠٥٠٠٠٠٠ بحثاً). وغير ذلك مما دعى البعض إلى وصف هذا الاهتمام بجغرافيا الحياة اليومية Every Day Geography التي تعبر تعبيراً دقيقاً عن المضمون الاجتماعي للجغرافيا المعاصرة.

أخطاء شائعة عن الجغرافيا:

هناك للأسف العديد من الأخطاء والمواقف السلبية التي تواجهها الجغرافيا. ولعل من أمثلة هذه الأخطاء والمواقف ما يأتي:

١- أشار سلطان العنقري في مقال صحفي إلى عدم الحاجة إلى دراسة الجغرافي متسائلاً في تهكم عن مدى الحاجة إلى "تحقيق مخطوطة في الجغرافيا التي باستطاعتنا معرفة الإحداثيات. وحالة الطقس والتضاريس... عن طريق التقنيات العالية..." (العنقري، سلطان، ١٤٢٥هـ). وكأن هذا هو مجال الجغرافيا الحديثة في اجترار الأرقام والوصف.

٢- أشار الشيخ الداعية عائض القرني: "من أسباب تقدم الغرب اعتماده على العلوم العملية التطبيقية... واعتمدنا على العلوم النظرية فانشغلنا بالجغرافيا حتى حفظنا عن ظهر قلب أسماء عواصم تشاد والسنغال وأوغندا... وهي لا تطعم خبزاً ولا ترفع مجدداً..." (القرني، عائض، ١٤٢٩هـ). وهذه قمة الجهل بمفهوم الجغرافيا.

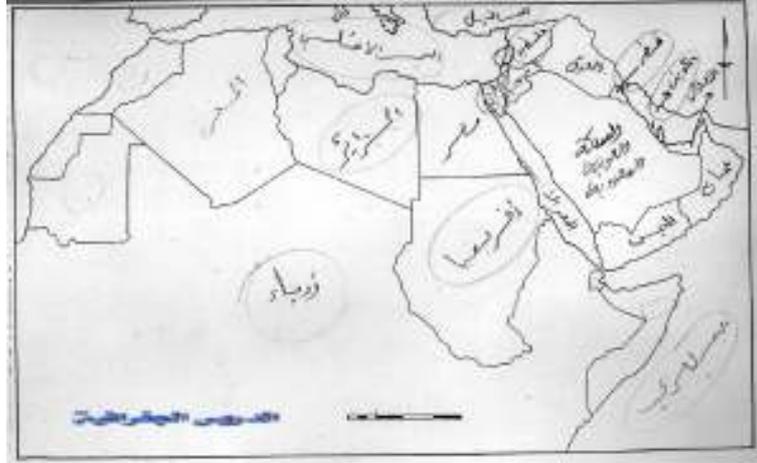
٣- هناك ضعف في مخرجات التعليم العام، فيقبل الطالب على التعليم الجامعي وهو لا يعرف حدود وطنه. ومن الأمثلة على ذلك نتيجة اختبار أجراه أستاذ في أحد

أقسام الجغرافيا لمعرفة مستوى وقدرات الطلاب المستجدين، وكانت النتيجة مثبطة للطموحات كما في الشكل الآتي.



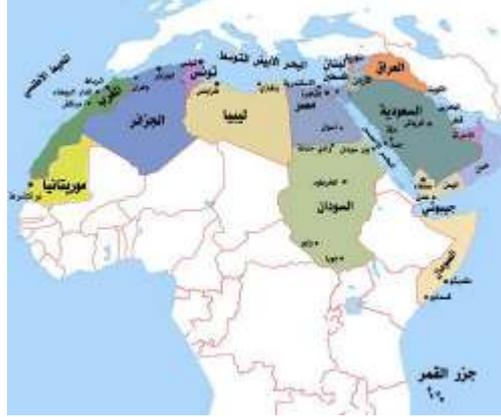
لاحظ أين جمهورية مصر والعراق والإمارات وتونس؟

وفي قسم آخر كانت الخريطة على النحو الآتي:



لاحظ كيف وضع الطالب بحر النيل في تركيا، وفلسطين في سوريا، وسوريا في الأردن، والبحر الأطلسي في البحر المتوسط، والأردن في فلسطين، وقطر في الكويت، والكويت في البحرين، وأفريقيا في السودان، والجزائر في ليبيا، والمغرب في الجزائر، أما أرباء فهي حد العالم العربي من الجنوب

وكلا الخريطين بالطبع تعج بأخطاء شنيعة نتيجة لعد الاهتمام بنقل المعرفة الجغرافية إلى أبنائنا بالطرق الصحيحة.
لاحظ الفرق بين الخريطين والخريطة الحقيقية للوطن العربي.



أهمية الجغرافيا:

يتضح من التعريفات الحديثة للجغرافيا والتي سبق ذكرها، أن الجغرافيا تعد من العلوم المهمة والضرورية لحياة الإنسان وتفاعله مع البيئة والاستمرار في تحقيق التوازن لهذه البيئة كما أمرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. ورسوله الكريم في سنته المشرفة:

فقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (سورة البقرة، آية ٣٠). وبذلك قضى سبحانه وتعالى بفكرة الاستدامة بين ديمومة خلق الله ونجاح عمل الإنسان في علاقة إبداعية متوازنة. وكما قال شاعر باكستان محمد إقبال في مناجاة ربه:

لقد خلقت الليل يا رب وأنا صـنعت المصباح
ولقد خلقت الطين وأنا صـنعت الكأس
ولقد خلقت الغابة والجبل والصحراء وأنا صـنعت المشى والحديقة والبستان

تشير هذه الكلمات إلى علاقات بناءة تدرك أهمية الاستدامة المتوازنة المطلوبة من الإنسان. وبدون هذا التوازن تختل العلاقة وتدمر البيئة (الأرض). فالله سبحانه وتعالى عندما أنزل أبانا آدم وأرسل رسله لذريته لحكم إلهية تتمثل في عمران الأرض

وعبادته، والتفكير^١ في خلق الله وآياته، وتنفيذ أحكامه. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
 الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ^ط قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا^{٥٤}
 وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ^{٥٥} كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾،
 (البقرة، آية ٢١٩). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
 فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيَّهَا أَنْهَارًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
 حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ^{٥٦} كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾،
 (يونس، آية ٢٤). وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا
 أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ^{٥٧} إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ^{٥٨} قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا
 تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾، (الأنعام، آية ٥٠). وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ^{٥٩} أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٦﴾،
 (الذاريات، آية ٢١).

وحرص فقهاء المسلمين ومعماريهم على تتبع منهج إسلامي مستنداً على
 الكتاب والسنة في عمارة وتخطيط المدينة الإسلامية واستغلال موارد البيئة. وتزخر
 المصادر الفقهية بهذه الأحكام مثل أنواع المباني، والاستخدامات الدينية،
 والسكنية، والتجارية، وأحكام التوسع في البناء وارتفاعاته وزخرفته، والانتفاع من
 المرافق العامة. وكل هذه الجوانب مهمة جداً ومن صميم بعض فروع الجغرافيا.
 ولعل من هذه المصادر كتاب "الأمصار ذوات الآثار" للإمام الذهبي الذي أورد حقائق
 تاريخية وجغرافية في بناء المدن الإسلامية موضحاً منهج علماء الحديث في دراسة
 المدن والحوضر (الذهبي، ١٤٠٦ هـ. ص ١٢٨-١٣٢؛ ١٣٩-١٤٠).

وكل هذه الآيات والسيرة النبوية العطرة حثنا على التفكير في خلق الله وآياته
 (الآيات الشرعية والكونية). وهذا التفكير حتماً يؤدي إلى حب البيئة وحفظها

١- ورد في القرآن الكريم ١٣ آية تتضمن كلمتي يتفكرون، وتتفكرون.

والعمل على استدامتها وتطويرها بإبداعاته وسلوكياته على المستوى الفردي المحلي والإقليمي والدولي لنشارك جميعاً في تشكيل الهوية الوطنية والنسيج العالمي الشامل.

ولعل مفهوم الجغرافيا وهذه الفلسفة الإسلامية تبرز لنا أهمية العلاقات المبادلة التي تؤكد عليها الجغرافيا كما يؤكد عليها ديننا الإسلامي الحنيف.

وتبرز هذه العلاقات في المصنوفة الآتية: الله - المخلوقات ومنها الإنسان. البيئة (الطبيعية والبشرية) - العالم. وترتبط هذه المصنوفة بعلاقات تتضح في:

خلقنا الله سبحانه وتعالى وقرر سكننا في الأرض- سخر لنا الأرض وطلب منا

إعمارها. قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي

قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ (هود، آية ٦١). وبهذه النعمة الكبرى (تسخير الأرض) فنحن

مسئولون عن هذه الأمانة والحفاظة عليها وعدم تدميرها بل والدفاع عن أي أذى قد يصيبها.

وتتمثل هذه الحفاظة في السلوك الحسن والتعاون على الاستهلاك المتوازن للماء والخضرة والتربة والتركيبات الطبيعية وغيرها بما يسمح باستمرار تدفقها

وبقائها آمنه لكل البشر بما يحقق الحياة الآمنة الكريمة لجميع مخلوقات الله على هذه الأرض. وتتطلب هذه الحفاظة التعاون لسد حاجات بعضنا البعض. كما قال

تعالى: ﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۗ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ

مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ (الزخرف، آية ٣٢). فهناك حاجات لا يمكن أن ينفرد بمنفعتها

شخص معين أو مجموعة من الأشخاص. وإنما لابد من استفادة الجميع منها وإن كان بنسب متفاوتة. ومن هذه الحاجات الغذاء، والكساء، والتكاثر، والعلاج، ومواد

الصناعات... الخ. وتعد الجغرافيا علم مهم جداً في تحديد هذه الحاجات والطرق المتوازنة لإشباعها. وتساعد الجغرافيا في الجمع بين أمور الدين والدنيا بتأمل الحقائق التي تقود إلى الإيمان المؤدي إلى مصلحة الإنسان في أولاه وآخرته.

علاقة الجغرافيا بالهوية:

إن الرابطة القوية بين التدبير في المكان (وهو ما يعد أساس الجغرافيا) سواء بدوافع علمية بحتة أو بدوافع روحية دينية وبين وظيفة الإنسان في هذه الأرض هو ما أدى إلى تطور الجغرافيا في الماضي. خاصة عند المسلمين. حيث اكتسبت الجغرافيا بصمات وهوية إسلامية مميزة. فلو تأملنا أي فرع من فروع الجغرافيا لوجدنا تلك البصمات للعلماء المسلمين التي سعدت الدنيا بإجازاتهم الحضارية. واستفرت العقول والأذهان للبحث والتجريب والترحال. وأعطت لبعض هؤلاء العلماء قصب السبق في دراسة ظواهر جغرافيا عديدة شكلت علامات فارقة في مسيرة هذا العلم عبر التاريخ الإنساني القديم والحديث.

ومن الأمثلة المهمة على ذلك:

١- **قياس محيط الأرض:** اهتم الخليفة العباسي المأمون (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) بتحديد أبعاد الأرض. ولذلك شكل فريقاً من علماء الفلك والجغرافيا برئاسة (سند بن علي). وفريقاً آخر بقيادة (علي بن عيسى الإسطرلابي) بهدف قياس محيط الأرض. وقد جاءت نتائج أعمال الفريقين دقيقة إلى حد كبير. حيث توصل كل منهما إلى أن محيط الأرض = ٦٦ ميلاً عربياً وهو ما يعادل (٤٧٣٥٦ كم). أي قريب جداً من القياسات الحديثة التي تحدد محيط الأرض بنحو ٤٠٠٠٠ كم. أي بنسبة خطأ أقل من ٢٪. وهو أمر كان محل تقدير كبير من الجغرافيين المحدثين.

٢- **تصميم خارطة جامعة للعالم:** قام البتاني، أبو عبد الله محمد بن جابر بن سفيان الخرائطي بعمل أول خارطة جامعة ومفصلة للعالم بعد خريطة بطليموس. ولكنها



سور الصين العظيم

كانت أوضح من خريطة بطليموس. وقام المستشرق نلينو بنشرها في ثلاث مجلدات. ويعد البتاني من مؤسسي علم حساب المثلثات. وهو صاحب كتاب: "الزيج الصابي". كما قام أبو عبد الله بن أحمد بن نصر الجيهاني بوضع خريطة للعالم تعد أول خارطة لم تتأثر بآراء اليونانيين. وهو صاحب

كتاب "المسالك في معرفة الممالك" ضم معلومات جديدة عن بلاد الهند والسند والصين وإيران وآسيا الوسطى.

٣- حساب مساحة الأرض: وضع البيروني قاعدة حسابية لتحديد مساحة سطح الكرة الأرضية. أي نقل الخطوط والدوائر من سطح كروي إلى سطح مستوي. مما سهل رسم الخرائط الجغرافية.

٤- وفي دراسة طبقات الأرض يعد الرئيس أبي علي الحسين بن عيسى ابن سينا رائداً في التعريف بتركيب الجبال والأحجار والمواد المعدنية ومبادئ الحركة. واعتمدت أوروبا على كتاباته إبان نهضتها العلمية.

٥- تحديد خطوط الطول ودوائر العرض: يعد المسلمون أول من حدد خطوط الطول ودوائر العرض على خارطة الكرة الأرضية بمجهودات أبو علي المراكشي (ت ١١٠هـ/١٢٦٢م). وذلك للاستدلال على الأوقات المناسبة للصلاة في مختلف بقاع الأرض.



٦- صمم الإدريسي خريطة العالم بطلب من ملك صقلية رجار الثاني (ما يؤكد اعتراف الغرب بسبق المسلمين في المعرفة الجغرافية). وقد استخدمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوروبية. حيث لجأ إلى تحديد اتجاهات الأنهار والمرتفعات والبحيرات.

وضمنها أيضاً معلومات عن المدن الرئيسية بالإضافة إلى حدود الدول. وقد استطاع الإدريسي تصحيح معلومات بطليموس حول مواقع العديد من المدن ومصدر مياه نهر النيل.

وقد قام العالم الألماني "كونراد ميلر" بنشر نسخة ملونة من هذه الخارطة سنة ١٩٢٨هـ بعد أن جمع لوحاتها المتعددة (٧٠ لوحة بطول نحو ٥م). وترجمها إلى اللغة الألمانية. وقد اهتم الجمع العلمي العراقي بهذه الخارطة. فقام بتحقيق النسخ المتوفرة منها (ملونة وغير ملونة) وأخرجها في خريطة عربية طبعت في سنة ١٩٥١م وهي بطول ٢م x ١م.



خريطة الوطن العربي التي رسمها الإدريسي



٧- جهود البحارة التركي المسلم كمال رئيس: قام البحارة المسلم قائد الأسطول المصري برسم خارطة دقيقة وعالية الجودة للأمريكتين عام ١٥١٣م. وقد ربط إحدائيات هذه الخارطة بالأفلاك والمجرات.

٨- رحلات ابن بطوطة: يعد ابن بطوطة شيخ الرحالة العرب (١٣٢٥-١٣٥٤هـ). فقد غطت رحلاته خلال ربع قرن من الزمان أصقاع الأرض وعلى رأسها رحلاته إلى مكة المكرمة، وإلى بلاد الأندلس، وإلى



تاج محل

ضريح رائع الصنع، أنيق العمارة يعتبر من أجمل نماذج طرز العمارة الإسلامية بالهند شيده الملك شاه جهان (١٦٣٠ - ١٦٤٨) ليضم رفات زوجته أرجمند مانويكيم

غرب أفريقيا. كشفت هذه الرحلات أسرار بقاع عديدة من كوكبنا من جوانب طبيعة وبشرية. ومن أشهر كتبه: "خفه الأنظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وسبق ابن بطوطة العديد من الرحالة البلدانين مثل أبو سعيد عبد الله بن قريب الأصمعي (١٢١١-١٢١٦هـ/٧٤٠-٨٣١م)؛

وسليمان السيرافي صاحب كتاب عن السياحة في الهند والصين صدر في عام ٨٥١هـ/٢٣٧م؛ وأحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح اليعقوبي صاحب كتاب

"البلدان-٢١٦هـ/٨٧٩م)؛ وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (توفي عام ٢٩٧هـ/٨٩٢م) صاحب كتاب "فتوح البلدان"؛ وأحمد بن فضلان له رسالة تصف رحلاته إلى بلاد الترك والخزر والروس والصفالية (٣٠٩هـ)؛ وأبو حيان التوحيدي (٣١٠-٤١٤هـ/٩٢٣-١٠٢٣م) صاحب كتاب: "الإمتاع والمؤانسة". وهو كتاب موسوعي احتوى مسائل عديدة عن الأدب والإنسان والحيوان والسياسة والاجتماع وعادات الشعوب وحوار الحضارات؛ وأبو القاسم محمد بن إبراهيم الكرخي المشهور بالإصطخري وصاحب كتاب: "المسالك والممالك" الذي وضعه بين ٣١٨-٣٢١هـ/٩٣٠-٩٣٣م وغيرهم كثير.

وتبع ابن بطوطة رحالة آخرون يشار إليهم بالبنان في مجال الكشوف الجغرافية والرحلات مثل ابن ماجد شهاب الدين أحمد بن ناصر بن أحمد بن عمرو النجدي (٨٢٣-٩١٤هـ/١٤٢١-١٥٠٩م) المكنى بالمعلم وصاحب كتاب: "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد". وقد أحصى له ٢٥ مؤلفاً جُلها عن الرحلات البحرية؛ وسليمان الفهري وهو جَار معاصر لابن ماجد له كتاب: "العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية". وضعه في عام ٩١٧هـ؛ وناصر خسرو القياداني الذي قام برحلته المشهورة إلى مكة في عام ١٠٤٧م؛ وحسن بن الوزان المعروف ب"ليو الأفريقي". ولد في عام ١٤٩٣م. وله كتاب: "وصف أفريقيا" نشر في عام ١٥٥٠م؛ وأبو طالب خان التركي (١٧٥٢-١٨٠٦م) الذي قام برحلته المشهورة إلى العراق وأوروبا والهند. وتضمنت رسائله مقارنات مفصلة بين الإنجليز والفرنسيين



مدينة العسكر هي المدينة التي أسسها صلاح بن علي أول وال للعباسيين في مصر سنة (١٣٣ هـ - ٧٥٠ م) شمال القسطنطينية وانتهى منها عام ١٣٥ هـ وهي أحد المدن الثلاثة التي كونت القاهرة المعز. وكانت في البداية مقصورة على الجنود العباسيين، ولعل هذا السبب الذي جعل الناس يطلقون عليها العسكر، واستمر ذلك الحال حتى جاء السري بن الحكم واليا على مصر عام (٢٠١ هـ - ٨١٦ م) فأذن للناس بالبناء فتهافت الناس على البناء بالقرب من مقر الحكم ونمت المدينة حتى اتصلت بالقسطنطينية.

والأيرلنديين؛ ورفاعة الطهطاوي الذي قام برحلته إلى أوروبا في عام ١٨٢٦م بتكليف من والي مصر محمد علي باشا. ولخص ملاحظاته في كتاب: "الإبريز في تلخيص باريز" والذي حاول فيه نقل معلومات وافية عن الحضارة الغربية الزاهرة لتطبيقها على حضارة الشرق الألفية:

وما من شك أن هذه الجهود

وغيرها كثير أعطت الجغرافيا في القرون المبكرة هوية إسلامية تخدم أغراض المسلمين في تحديد المسالك. وقد استفاد الغرب من هذه الريادة للجغرافيين المسلمين أيما استفادة.

خاصة فيما يتصل بالخرائط الإسلامية. فقد تخطف الغرب مؤلف الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). وطبعوه عدة طبعات. وبقي مصدرا أساسيا لدراسات الجغرافيين الأوروبيين لأكثر من أربعة قرون. وهذا يعنى أن الجغرافيين المسلمين لم يكونوا منغلقيين بمعرفتهم الجغرافية. ولكنهم استفادوا منها في ما يخدم هويتهم الإسلامية ولم يبخلوا على البشرية بالاستفادة منها. فانتشرت فوائدها للقاصي والداني.

وظل هذا التوجه هو المحرك لكثير من الجغرافيين أو ما كانوا يسمون بـ "البلدانيين" و "المسالكيين" و "الخرائطيين" و "الموسوعيين" المسلمين الذين قاموا برحلات عديدة وبعضها شاق ومضني. ولكنهم تفاعلوا في خدمة جغرافية الأماكن بما يحفظ الهوية الوطنية. ومن هؤلاء الجغرافيين قريبي العهد بزمنا الحاضر الشيخ ابن بليهد. والشيخ حمد الجاسر. والشيخ عبد الله بن خميس وغيرهم ممن تمرس في تحديد الأماكن. فأحدهم عندما يحدثك عن المسالك في الجزيرة العربية تجده قد رسم خريطة ذهنية جعل المستمع يسير في تأملات وتحركات وكأنه يتبع خرائط نظم المعلومات الجغرافية الحديثة. والسؤال المهم هنا: هل يمثل هذه المعرفة نستطيع أن نحافظ على هويتنا الوطنية المتمثلة في المكان الذي نعيش عليه. أم بتلك الأخطاء الفاضحة التي يعتصر لها القلب حزنا عندما لا يعرف ابن الوطن أين تبدأ حدود الوطن وأين تنتهي. ولا يعرف مواقع أماكن مهمة في وطنه لها أثر كبير في تاريخ ووحدة هذا الوطن؟

إن بعض المطالبين بإلغاء بعض أقسام الجغرافيا أو تقليص تعليم الجغرافيا في التعليم العام بحجة أن أبناء بعض الدول المتقدمة لا يدركون الحقائق الجغرافية خارج المدينة أو القرية التي يعيشون فيها.

وهنا يبرز سؤال مهم آخر. وهو: هل كل ما يطبقه الغرب حسن وينبغي أن نلته خلفه؟. إن غياب المعرفة الجغرافية لدى الكثيرين من سكان الدول المتقدمة هي وصمة عار وليست مفخرة. وهي مبررة لديهم. لأنهم يتجهون بالجرف شديد نحو الحياة المادية والمصالح الشخصية. فالمجتمع الأمريكي مثلاً يعد من أكثر المجتمعات في العالم حركة وترحالا (1) من كل خمسة أفراد ينتقل سنويا من مكان لآخر ليس لهدف محدد وإنما لغرض التجديد والبعد عن الملل من العيش في مكان واحد). وهذا يعنى ضعف الانتماء للمكان. وإنما يتحرك الإنسان كما توجهه غرائزه ومصالحه سواء كانت هذه المصالح تنفع الآخرين أو تضرهم. ومن هنا جاءت فكرة العولمة التي تحركها المصالح الدولية. حيث لم يعد للوطنية أو الهوية أو المكان أو حقوق الآخرين أية أهمية. وإنما تعنى إلغاء

حقوق الآخرين. ويبقى قانون المصالح والأقوى هو المسيطر على كل سكان العالم وموارده ومدخراته.

ولهذا يجب أن لا ننجرف وراء هذا الادعاءات والمغالطات حتى نحافظ على وطننا وثقافتنا وديننا. وكل هذه عناصر مهمة في تحديد الهوية.

ولابد من الإشارة هنا-كما أوضحت تعريفات الجغرافيا- بأن مضمون الجغرافيا تطور كثيراً. فهو لم يعد تحديد أسماء وأماكن فقط بل أصبح علماً له نماذجه ونظرياته التي تساعد في التحليل المكاني وتحديد العلاقات بين العناصر الطبيعية والبشرية التي تساعد على التنمية. وبالتالي فإن أي مشروع أو خطة تنمية محلية أو إقليمية أو وطنية لا تستغني عن المعرفة الجغرافية. بل وحتى في دعوتنا لنشر الإسلام. كما ذكر النصيبان بالحاجة. حتى للداعية. للجغرافيا (النصيبان. ١٤٢١هـ. ص ١٠). بل إن أدائنا للشعائر الإسلامية (وهي جزء من هويتنا الإسلامية) مثل الصلاة والصوم والحج يرتبط ارتباطاً كبيراً بالجغرافيا كما ترتبط بعلم الفلك. والأهم من كل ذلك أن تقوية المعرفة الجغرافية الوطنية تمنح الأجيال القادمة قدراً كافياً من المناعة الذاتية والحصانة الفكرية والعملية لحماية الوطن ومعتقداته. أما التحلل من المعرفة الجغرافية أو إضعافها هو خطأ فادح قد يؤدي إلى تفكك روح الانتماء الصحيح النابع من المعرفة الشمولية للجغرافيا والعقيدة الصحيحة بعيداً عن التحيزات القبلية أو الفئوية. وإنما لنتعرف على مركب الجسد الواحد حتى يتعاقد ويكمل بعضه بعضاً.

فلنعمل سوياً على الحفاظ على هذا العلم المتميز. وتشجيع البحث في جميع فروعه. والعمل على تطويره لتعيد مجد أسلافنا ونكون خير رسل للمحافظة على البيئة والمساهمة مع الجهود العالمية في إنقاذ البيئة. فحضارتنا صديقة للبيئة فلسفياً وعملياً لأنها حضارة لم تبني على المصالح الشخصية وإنما على حب عمل الخير (أحب لأخيك كما تحب لنفسك). وهذا العمل لا يتم في قاعات الدرس وإنما لابد من الاهتمام بالتدريب والتطبيق. وقد أحسن أحد أقسام الجغرافيا في المملكة بالاهتمام بالتدريب التعاوني حيث تعاون القسم مع ٢٤ مؤسسة حكومية وخاصة لتدريب الطلاب قبل التخرج في جوانب عديدة تتصل بالجغرافيا (المطير. عامر. ١٤٢٩هـ). بل وحرصت العديد من الأقسام على إنشاء معامل لنظم المعلومات الجغرافية ومعامل أو مراكز للاستشعار من بعد لخدمة التوجهات والخطط الجديدة في أقسام الجغرافيا لتخريج كفاءات ذات قدرات ومهارات مرتفعة.

وهنا لابد من العمل على كل المستويات لنشر الوعي بأهمية الجغرافيا واستيعاب فروعها ومجالاتها. فالوعي يعد حجر الأساس للعمل الذي يحفظ التوازن ويمنع الكثير من المشاكل المتصلة بالزراعة والعمران والسكان واستخدام الموارد المائية أو المعدنية أو الغابية والتلوث الهوائي أو المائي أو الصوتي. وتطبيق جوانب هذا الوعي لا يتم إلا بمعرفة المكان وحدوده والجهود التي بذلت في بنائه وتطويره حتى يمكن خلق جبهة وطنية موحدة تعزز بماضيه وتفخر بحاضره وتعمل على حماية مستقبله في ظل حياة آمنة مستقرة.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عيسى، ١٩٨٠م، **عيون الحكمة**، ط٢، وكالة المطبوعات (الكويت)، ودار القلم (بيروت)، (تحقيق عبد الرحمن بدوي).
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عيسى، ١٩٨٣م، **الشفاء: الطبيعيات**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحضير التراث، القاهرة (تحقيق سعيد زايد).
- جنسين، أريد هولت، ٢٠٠٧م، **الجغرافيا: تاريخها ومفاهيمها**، دار جامعة عدن، عدن (ترجمة شاكر خصباك).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣-٧٤٨هـ)، ١٤٠٦هـ **الأمصار ذوات الآثار**، دار البشائر الإسلامية، بيروت (تحقيق قاسم علي سعيد).
- الرشود، عبد المحسن، ١٤٢٥هـ، "أنا دول نامية لا نفهم حقيقة الجغرافيا"، **جريدة الوطن**، ع ١٣٧٣، ص ٧.
- الزهراني، عبد الله بن سالم، ١٤٢١هـ، "الجغرافيا والجغرافيون في دول مجلس التعاون الخليجي: المكانة والتطلعات"، **جريدة الجزيرة**، ع ١٠٧٤.
- السويد، محمد، ١٤٢١هـ، "ندوة الثلاثاء: الجغرافيا في خدمة التخطيط"، **جريدة الرياض**، ع ١١٦٣٥، ص ٣٤-٣٥.
- الصعب، عبد العزيز، ١٤٢٧هـ، "رحلات المسلمين وارتباطها بالجغرافيا والتجارة"، **جريدة الرياض**، ع ١٣٠٩٤، ص ٢٩.
- العنقري، سلطان، ١٤٢٥هـ، "التعليم العالي يحتاج إلى غريبة شاملة!"، **مجلة اليمامة**، ع ١٨٣٠، ص ١٤-١٥.
- الغامدي، علي بن معاضة، ١٤٢٥هـ، "ماجستير علوم البيئة وتهميش الجغرافيا"، **رسالة الجامعة**، ع ٨٤٢، ص ٨.
- الغوينم، ١٤٢٨هـ، "البدنية بدل الجغرافيا"، **جريدة الرياض**، ع ١٢٥٣٣.
- القرني، عائض، ١٤٢٩هـ، "العمل أو الموت"، **الشرق الأوسط**، ع ١٠٦٩٦.
- المطير، عامر، ١٤٢٩هـ، "قسم الجغرافيا وخرجه"، **رسالة الجامعة**، ع ٩٦٠، ص ١٥.
- النصيبان، ١٤٢١هـ، "حاجة الداعية للجغرافيا"، **جريدة الجزيرة**، ع ١٠٠٦٠، ص ١٠.



المراسلات والإتصالات:

ص ب ٢٢٥٦ الرياض ١١٢٥١

هاتف: ١٤٦٨٨٩٩٠. فاكس: ١٤٦٨٨٨٨٢.

بريد إلكتروني: sgs@ksu.edu.sa

www.saudigs.org